

قصته بقلم
مهدي عيسى الصقر

الهدبر

الظلال الساقطة من السعف النافر من ذرى النخل تتكسر على الجذوع البنية الفاقعة اللون في خطوط سوداء مائلة وتنزلق الى الارض المشبة حيث تسقط ايضا ظلال الجذوع الطويلة وتتداخل لتقسم الارض الى مربعات ومثلثات عشبية تفرشها الشمس . السماء باهتة الزرقة وصافية ، لا اثر فيها لسحابة او دخان ، والمدينة نائية .. نائية جدا .

الكهل والكلب ينتظران .
الدقائق تمر ثقيلة بطيئة على الاثنين . ويضجر الكلب بعد فترة . يتململ ويمد انفه الى فتحة الجيب الجانبي في دشداشة الرجل . فتحة الجيب تهبط عاموديا بطول قدم تقريبا على امتداد ساق الكهل مثل جرح طويل تخثر على اطرافه الدم . يبعد الكهل رأس الكلب بقوة عن فتحة الجيب وينهره بشدة . انتظر ! لكن الكلب لا ينتظر . يترك رأسه يتدلى الى الارض ، يدير ظهره ويتحرك مبتعدا صوب البساتين سالكا نفس الطريق الذي جاء منه قبل فترة . يصيح الرجل وراه في غضب . عواد ! يتوقف الكلب .. يستدير ويعود الى مكانه . يرفع رأسه الى الرجل وينتظر في صبر . ومثل كل يوم يدس الكهل يده في فتحة الجيب .. يخرج عظما علقت باطرافه قطع صغيرة داكنة من اللحم ويرميه الى الارض فينفض عليه الكلب المعجوز في نهم . يسمع الرجل حمحمة الكلب المنشغل بالعظمة . يرتخي وجهه المجدد ، لكن نظراته المنشغلة تظل ترنو الى بدايات الدرب .. في المدى البعيد .

الكلب يتمدد الان بارتياح على الارض الدافئة ، في الشمس ، عند اقدام الكهل ، مغمضا عينيه بعد ان اتى على قطعة العظم كلها . ظلال جذوع النخيل في البساتين

من بساتين النخيل وراء بناية المحطة ، خرج - مثل كل يوم - كلب أشهب هرم وجاء يخبّ في خط مستقيم ، رأسه الكبير يتدلى أمامه يتشمم الارض الدافئة ، وذيله يتأرجح بين رجليه ، وحين وصل على بعد بضع اقدام من سكة القطار ، توقف فجأة وكأنه ارتطم بجدار غير مرئي . رفع رأسه وبقي ينتظر . في اللحظة نفسها تقريبا - ومثل كل يوم أيضا - خرج من داخل بناية الحطة رجل كهل يرتدي دشداشة غبراء ويلفّ رأسه بيشماغ قديم ويستند على عصا غليظة . ادار رأسه كعادته كل ضحي وحقق في مكان الساعة على الجدار فوق مدخل البناية . رأى - رغم ضعف بصره - الرقعة المستديرة البيضاء ، الرموز السوداء وعقارب الساعة المعدنية التي كانت تشير الى العاشرة . شاهد الكلب يقترب من السكة ثم يتوقف في مكانه المعتاد بانتظار وصول القطار لعل أحد ركابيه يرمي اليه بشيء يؤكل من احدى نوافذه العديدة وهي تخطف أمامه الواحدة بعد الاخرى ثم تسكن دون حراك ، تلوح عبر زجاجها السميك ، في ظلمة العربات ، وجوه شجرة متعبة علاها الفبار وهذا السفر الطويل .

اقترب الكهل بخطى بطيئة ووقف الى جانب الكلب وراح الاثنان ينتظران وعيونهما تجاه الشرق .

القضبان الحديدية لسكة القطار - والتي انطفاً بريقها - تكاد تختفي كلها تحت بساط كثيف مسن العشب الاخضر والعاقول النات في التراب وبين الحصى والصخور والعوارض الخشبية السميقة ، والتي تفور معظم اجزائها في داخل الارض . الاجزاء الصفيحة المكشوفة من الحديد والتي تلوح داكنة ، بين خضرة الحشائش والاشواك ، في اماكن متباعدة ، تدل بوضوح على مسرى الخطين . السكة تمتد بين صفيين طويلين من بساتين النخيل تنتصب على جانبيها الجذوع الباسقة في خطوط متوازية تمتد طولاً وعرضاً الى مسافات بعيدة .

خده وراحة يده ، ويسمع هديرا مكتوما ينبعث من باطن الأرض تحت رأسه ، وتضيء وجهه الداوي ابتسامة فرح .. وتملأ صدره ضحكة تنطلق مثيرة معها نوبة من السعال الجاف المتواصل . ومن وراء اجفانه المغلقة - وهو يختض ويشهق بحثا عن الهواء - يرى القطار مقبلا من بعيد يهدر ويتلوى مثل ثعبان اسود ضخيم طويل ، وصغيره للمحاح يمزق السكون ويملأ بساتين النخيل على الجانبين . ويعاود هدير العجلات وصرير الحديد على الحديد ، واللهاث الوحشي للماكنة الضخمة الداكنة المندفعة بجنون تكتسح الفراغ في عناد ، ويلفحه الهواء الحار ويحاول النهوض والخلاص ، لكن جسده الثقيل يظل ملتصقا بالأرض ، وتخور قواه وتنضب شئنا فشيئا كمن ينزف دمه دون انقطاع .. ويطبق عليه القطار أخيرا ، وبشعر بعجلاته العديدة المتلاحقة الهادرة تدوس فوق خده الواحدة بعد الأخرى في تتابع ابدى ..

عندما تأتي امرانه ظهرا لتعود به الى البيت ، تتاهد قطيعا من الاغنام ينتشر فوق السكة امام بناية المحطة .. بعض الخراف ترعى العشب وبعضها تنام في الشمس في اوضاع مختلفة . تلمح جانبا من جسد زوجها المنظر على الأرض ، فتشق طريقها اليه بين اجساد الخراف النائمة . يقع نظرها على الكلب الهرم وهو يتمدد على الأرض مغمض العينين ، ثم ينكشف لها وجه زوجها الملتصق بحديد السكة ، وكأنه يستمع لصوت قادم من باطن الأرض وكفه الداكنة الجافة المعروقة الراقدة الى جانبه - بين العشب الاخضر - تبدو مثل جذر شجرة كبيرة هرمة قتلها العطش .

بغداد

صدر حديثا

البطل الثوري

في الرواية العربية الحديثة

للقائد المصري : أحمد محمد عطية

منشورات وزارة الثقافة السورية

سعر النسخة ٦٠٠ ق.س.ل

المحيطة تنقصر مع اقتراب الظهيرة . الرجل لا يزال في مكانه ينظر وعيناه الصغيرتان النديتان نحدقان في المنعطف البعيد حيث تضيع معالم الدرب وبثشابك السعف وتداخل الجذوع كما في غابة نخيل كبيرة واحدة . من هناك كانت تخرج الماكنة كل يوم مندفعة مثل نقطة صغيرة سوداء تكبر شيئا فشيئا وهي تترب تبعتها ساسلة من العربات في خط طويل يتاوى ثم لا يلبث ان يستقيم لتختفي العربات كلها بعد ذلك وراء الماكنة الضخمة المقبلة ..

يمر قروي .. يرى الكهل وانكب في مكنتهما المعدد قرب سكة القطار . يقترب منهما يصيح بصوت مرافع لكي يسمعه الرجل . سلمان .. قطارك تأخر ! ياتفت اليه الكهل في غضب . تهزأ حضرك ! لا ابدا .. لكن اقول قطارك تأخر وان يصل ! يرد الكهل مطمئنا وهو يشيح بوجهه .. يجي .. يجي .. لا بد يجي . يتسم الرجل في اشفاق ويهز رأسه وهو يمضي .

بناية المحطة الصغيرة مهجورة وخاوية . جدرانها متداعية ، بابها مخلوع ، ونوافذها الخالية من الزجاج تعصف عبرها الريح . وفوق المدخل ، على الجدار الاسمنتي المغلى بطبقة كثيفة من الغبار ، حيث كانت تستقر ساعة المحطة - والتي ازيلت منذ زمن بعيد - لم يبق غير خط دائري كبير من الصدا الذي خلفه على الجدار اطارها المعدني المستدير ، وعدد من الثقوب السوداء الصغيرة حيث كانت تمر اسلاكها الكهربائية .

يفتح الكلب عينيه .. ينهض ويتمطى ، ثم - فجأة - يرفع رأسه ، يوتر اذنيه ، ويحدق في المنعطف البعيد متحفزا . ينتفض الكهل في مكانه . ها عواد .. سمعته؟؟ يظل الكلب جامدا في مكانه يتصيد الاصوات البعيدة ويحاول ان يتعرف عليها ويميز مصدرها . الكهل يتربق . يضنيه الانتظار . يرمي عصاه جانبا ، ينطرح على الأرض ويتشبث بقضبان السكة ، ويلصق اذنه بالحديد البارد ، فينصهر العشب تحت خده المجدد وراحة يده المتخشبة .

يلمح الكلب طلائع قطع من الاغنام ينتشر بين جذوع النخيل في البساتين البعيدة وفوق سكة القطار ، ويرعى العشب الاخضر ويتقدم على مهل ، ينثر البعور بين القضبان واقدامه الصغيرة الكثيرة ترتطم بالحديد وهو ينتقل من مكان الى آخر .

يشعر الكهل بحديد السكة البارد ينبض تحت لحم